ALL !N مع جوردان إيزلي

لماذا تفكّرون بالشرّ في قلوبكم؟

أسئلة سألها يسوع | الجزء الخامس | متى ٩:١-٨

مقدمة

نحن أول جيلٍ في التاريخ يفهم حقًّا أهمية صورة الملفّ الشخصي الجيّدة. أكثر من ٢٥٠ مليون شخص على وسائل التواصل، ولا أحد ينشر أسوأ صورةٍ له: نبحث عن أفضل زاوية والإضاءة الصحيحة، ثم نُنعّم البشرة، ونُشرق الألوان، ونضيف مرشّحًا أو اثنين، حتى حين يرانا الناس على الإنترنت يرون أفضل نسخةٍ منّا. لكنّ الحقيقة هي: هذا ليس فقط سلوكنا على الإنترنت، بل هو أسلوب حياة كثيرين منّا روحيًّا. تعلّمنا أن نحرّر ما يراه الناس: نُرشّح كلماتنا، ونصقل مظهرنا، وندير سمعتنا. أتقنّا فنّ «الملخّص الروحيّ» المثاليّ. لكنّ الصورة الحقيقية، تلك بلا مرشّح، هي التي يراها يسوع.

في متى ٩، ينظر يسوع إلى جماعةٍ من رجال الدين بَدَوا قدّيسين من الخارج لكنهم كانوا يُخفون فسادًا في الداخل، ويسألهم سؤالًا هو أيضًا سؤالنا اليوم: «لِمَاذَا تُفَكِّرُونَ بِالشَّرِّ فِي قُلُوبِكُمْ؟» (عدد ٤). لا تنطلي على يسوع المرشّحات. لا يقف عند السطح؛ بل ينظر إلى أعماق النفس. وأحيانًا يكون أكثر ما يفعله نعمةً هو أن يكشف ما نجتهد كثيرًا لإخفائه، لا ليجرحنا، بل ليشفينا. وبينما نسير في هذا المشهد، لاحظ كيف ينتقل يسوع مما يراه، إلى الصدق الذي يدعو إليه، إلى التطهير الذي يمنحه، إلى التحوّل الذي يأتي به.

النقاط الرئيسية

١. يسوع يرى ما نُخفيه

حين رجع يسوع إلى بيته في كفرناحوم، امتلأ البيت بسرعةٍ حتى عجز أربعة رجالٍ عن إدخال صديقهم المفلوج وسط الزحام، فنقبوا السقف ودلّوه أمام يسوع مباشرةً. توقّع الجميع شفاءً، لكن «لَمَّا رَأَى يَسُوعُ إِيمَانَهُمْ قَالَ لِلْمَفْلُوجِ: ثِقْ يَا بُنَيَّ. مَغْفُورَةٌ لَكَ خَطَايَاكَ» (عدد ٢)، لأن أعظم حاجات هذا الرجل لم تكن ساقيه، بل الغفران. لم يفرح الجميع. ابتدأ الكتبة يقولون في أنفسهم: «هذا يُجدّف» (عدد ٣)، بصمتٍ، وسرًّا، وفي الداخل. لكنّ يسوع علم: «فَعَلِمَ يَسُوعُ أَفْكَارَهُمْ، فَقَالَ: لِمَاذَا تُفَكِّرُونَ بِالشَّرِّ فِي قُلُوبِكُمْ؟» (عدد ٤). لم يقرأ وجوههم فحسب؛ بل قرأ قلوبهم. السلطان نفسه الذي قدر أن يغفر الخطايا قدر أيضًا أن يرى مباشرةً ما كان يجري في الداخل. ويسوع نفسه الذي رأى ما كانوا يُخفونه لا يزال يرى ما نُخفيه اليوم: حين يصير إيماننا روتينًا، وحين تصير عبادتنا مجرّد كلمات، وحين تبدو صلواتنا صادقةً بينما قلوبنا في مكانٍ آخر.

من أين تأتي تلك الأفكار الشريرة؟ الكلمة اليونانية لـ«الشرّ» هنا، بونيروس، تعني شيئًا مريضًا، أو فاسدًا، أو متعفّنًا: كان يسوع يُشخّص عدوى. أفكار الكتبة لم تبدأ شرّيرة؛ بل تلوّثت مع الوقت. ما بدأ اقتناعًا تحوّل ببطءٍ إلى نقد؛ وما بدأ تكريسًا تعفّن بهدوءٍ إلى خداعٍ للذات. هكذا تعمل الخطيّة عادةً: لا تقتحم، بل تتسرّب. الغضب كثيرًا ما يبدأ جرحًا، والمرارة تبدأ خيبة أمل، والشهوة تبدأ فضولًا، والكبرياء يبدأ انعدام أمان. وحين تُبقي تلك الأفكار مخفيّة بدل أن نأتي بها إلى الله، تتجذّر وتتقسّى، فتغيّر كيف نرى أنفسنا والآخرين وحتى الله، حتى نبدأ ندافع عمّا ينبغي أن نعترف به. لهذا يقول الأمثال ٤:٢٣: «فَوْقَ كُلِّ تَحَفُّظٍ احْفَظْ قَلْبَكَ، لأَنَّ مِنْهُ مَخَارِجَ الْحَيَاةِ». لم يحفظ الكتبة قلوبهم؛ بل حفظوا صورتهم. كلّما كشف يسوع ما ينمو في الظلام، فهو لا يريد أن يُخزيك، بل أن يُحرّرك، لأن الأفكار الشرّيرة لا تبدأ شرّيرة، لكن إن لم تُسلّمها قطّ، فهناك تنتهي.

٢. التحوّل يبدأ حين نصدق

سؤال يسوع لم يكن هجومًا؛ بل دعوة. «لِمَاذَا تُفَكِّرُونَ بِالشَّرِّ فِي قُلُوبِكُمْ؟» كان دعوةً إلهيّةً إلى الصدق، فرصةً لإحضار أفكارهم المخفيّة إلى النور. تلك اللحظة كان يمكن أن تُغيّر كل شيء. كان بإمكانهم أن يقولوا: «حقٌّ يا ربّ. قلبي ليس نقيًّا»، ويعترفوا بكبريائهم وحسدهم في الحال. لكنهم صمتوا، وتلك هي المأساة: أعطاهم يسوع فرصةً للشفاء، فرفضوا أن يعترفوا بأنهم مرضى.
الاعتراف كان دائمًا باب التحوّل. يقول الأمثال ٢٨:١٣: «مَنْ يَكْتُمُ خَطَايَاهُ لاَ يَنْجَحُ، وَمَنْ يُقِرُّ بِهَا وَيَتْرُكُهَا يُرْحَمُ». كانوا قد بنوا هويّتهم على المظهر البارّ، فبدا الاعتراف بالخطيّة كاعترافٍ بالضعف، وذلك لقائدٍ دينيّ أمرٌ لا يُحتمَل. ظنّوا أن الصمت يحميهم، لكنّ الصمت لم يحفظ سوى خطيّتهم.

وإن كنّا صادقين، كثيرًا ما نفعل الشيء نفسه. نجلس في الكنيسة، ونسمع الكلمة، ونشعر بالتبكيت، لكن بدل أن نعترف، نتستّر؛ نُنقّي كلامنا، ونرفع أيدينا، ونرنّم ترانيمنا، بينما في الأعماق نعرف أن شيئًا ليس على ما يُرام. كل مؤمنٍ يصارع أفكارًا مخفيّة —حسدًا، غضبًا، شهوة، انعدام أمان، ضغينة — لكنّ الفرق بين العبوديّة والانطلاق أمرٌ واحد: الصدق. تعلّم داود هذا. بعد محاولته إخفاء خطيّته، كتب أن صمته تركه يئنّ ويذوب، «اعْتَرَفْتُ لَكَ بِخَطِيَّتِي وَلَمْ أَكْتُمْ إِثْمِي... فَأَنْتَ رَفَعْتَ آثَامَ خَطِيَّتِي» (مزمور ٣٢:٥). لم يكن جسر شفائه الكمال، بل الاعتراف. كفّ عن التظاهر وبدأ يتوب. الكبرياء سيمنعك دائمًا من التوبة، والتوبة هي الطريق الوحيد إلى التحوّل؛ فما الأفكار التي كنت تُخفيها، وما الخطيّة التي كنت تُبرّرها، وما السرّ الذي يُكلّفك سلامك؟ يسوع يعرف مسبقًا، ولا يزال يدعوك إلى الصدق، لا ليُخزيك، بل ليُحرّرك.

٣. يسوع يُطهّر ما نعترف به

بعد أن واجه الكتبة، التفت يسوع إلى المفلوج —الذي لا يقدر أن يتحرّك، ولا أن يكتسب، ولا أن يُصلح نفسه— وسأل: «أَيُّمَا أَيْسَرُ، أَنْ يُقَالَ: مَغْفُورَةٌ لَكَ خَطَايَاكَ، أَمْ أَنْ يُقَالَ: قُمْ وَامْشِ؟ وَلكِنْ لِكَيْ تَعْلَمُوا أَنَّ لابْنِ الإِنْسَانِ سُلْطَانًا عَلَى الأَرْضِ أَنْ يَغْفِرَ الْخَطَايَا»؛ حينئذٍ قال: «قُمِ احْمِلْ فِرَاشَكَ وَاذْهَبْ إِلَى بَيْتِكَ» (عدد ٥-٦). هناك مباشرةً، أمام الجمع المرتاب، قام الرجل، وحمل الفراش الذي حمله سنين، وخرج معافًى تمامًا. لاحظ الترتيب: الغفران سبق الحرّية. الخطيّة شللٌ أعمق من أيّ حالةٍ جسديّة، وحتى يُشفى القلب لا يُشفى شيءٌ آخر حقًّا. قدرة يسوع على شفاء المنظور أثبتت

سلطانه على غفران غير المنظور؛ فصار جسد ذلك الرجل موعظةً تمشي عن الغفران الذي كان قد ناله.

وما فعله يسوع لذلك الرجل جسديًّا، يفعله لنا روحيًّا. حين نعترف أخيرًا بخطيّتنا —حين نأتي بالمخفيّ إلى النور— لا يرفضنا ولا يحاسبنا عليها. «إِنِ اعْتَرَفْنَا بِخَطَايَانَا فَهُوَ أَمِينٌ وَعَادِلٌ، حَتَّى يَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَيُطَهِّرَنَا مِنْ كُلِّ إِثْمٍ» (١ يوحنا ١:٩). تلك الكلمة «يُطهّر» تعني التنقية الكاملة، الفرك حتى لا يبقى أثرٌ للبقعة. ما من خطيّةٍ أعمق من أن يغفرها، ولا فكرٍ أظلم من أن ترحمه رحمته. فوّت الكتبة المعجزة التي كانت تجري أمامهم لأنهم رفضوا معالجة الخطيّة التي كانت تجري فيهم؛ خرجوا من الغرفة بلا غفران، لا لأن يسوع منعه، بل لأنهم لم يعترفوا قطّ بحاجتهم إليه. لا ترتكب الخطأ نفسه: أحضِر له ما كنت تُخفيه، ودعه يغسله نقيًّا.

٤. يسوع يُغيّر مَن يصدق مع نفسه

«فَلَمَّا رَأَى الْجُمُوعُ تَعَجَّبُوا وَمَجَّدُوا اللهَ الَّذِي أَعْطَى النَّاسَ سُلْطَانًا مِثْلَ هذَا» (عدد ٨). جاء الرجل مكسورًا وخرج مُرمَّمًا؛ جاء مُثقلًا وخرج حرًّا؛ دخل على فراشٍ وخرج رسولًا. منذ تلك اللحظة، كل خطوةٍ خطاها كرزت بموعظةٍ صامتة: «غفر لي يسوع، ولستُ الشخص نفسه بعد الآن». هذا هو التحوّل، ولا يزال هذا ما يبدو عليه التحوّل اليوم. حين يُطهّر يسوع خطيّتك، لا يمحو ماضيك فحسب؛ بل يكتب لك مستقبلًا جديدًا كليًّا: «إِنْ كَانَ أَحَدٌ فِي الْمَسِيحِ فَهُوَ خَلِيقَةٌ جَدِيدَةٌ: الأَشْيَاءُ الْعَتِيقَةُ قَدْ مَضَتْ، هُوَذَا الْكُلُّ قَدْ صَارَ جَدِيدًا» (٢ كورنثوس ٥:١٧). لم يعُد الرجل إلى الفراش؛ بل سار قُدُمًا في اتجاهٍ جديد، حاملًا قصّةً جديدة بدل العار نفسه.

ربما كنت مطروحًا على «فراشك» زمنًا طويلًا، لا فراشًا جسديًّا، بل شعورًا بالذنب، أو العار، أو الكبرياء، أو خطيّةً حملتها بصمتٍ سنين. لا يزال يسوع يسأل: «لِمَاذَا تُفَكِّرُونَ بِالشَّرِّ فِي قُلُوبِكُمْ؟»، لا لأنه يريد أن يُدينك، بل لأنه يريد أن يُطهّرك؛ لا لأنه غاضب، بل لأنه مستعدٌّ أن يجعلك جديدًا. إنه لا يتصفّح «ملخّصك» ولا ينظر إلى صورتك المُرشَّحة؛ بل ينظر مباشرةً إلى قلبك قائلًا: «دعني أشفي ذلك». «إِذًا لاَ شَيْءَ مِنَ الدَّيْنُونَةِ الآنَ عَلَى الَّذِينَ هُمْ فِي الْمَسِيحِ يَسُوعَ» (رومية ٨:١)؛ حين تكون ليسوع، لا تعود خطيّتك تُعرّفك، بل نعمته. فاصدق أمامه، لأن يسوع حين يغفر لك، لا تقوم فحسب: تخرج مختلفًا، مُصلّيًا مع داود: «قَلْبًا نَقِيًّا اخْلُقْ فِيَّ يَا اللهُ، وَرُوحًا مُسْتَقِيمًا جَدِّدْ فِي دَاخِلِي» (مزمور ٥١:١٠).

أسئلة للتأمل

1. يرى يسوع ما وراء «الملخّص الروحيّ» المثاليّ مباشرةً إلى القلب. أين كنت تُحرّر الصورة التي تُقدّمها —للآخرين أو حتى لنفسك— بينما يجري في الداخل شيءٌ مختلف؟
2. أُعطي الكتبة فرصةً ليصدقوا فصمتوا. أيّ فكرٍ مخفيّ، أو ضغينة، أو خطيّة كنت تتستّر عليها بدل أن تعترف بها، وكيف سيبدو إحضارها إلى النور هذا الأسبوع؟
3. الأفكار الشرّيرة «لا تبدأ شرّيرة»: الغضب يبدأ جرحًا، والمرارة خيبة أمل، والكبرياء انعدام أمان. ما الفكرة الواحدة التي تحتاج أن تُسلّمها ليسوع الآن، قبل أن تتجذّر وتتقسّى؟